الأدب فى سير أعلامه

بيرون

ذلك العبقرى المتمرد الذى غنى أروع
أناشيد الحرية، ولاقى الموت فى سبيل الحرية

للأستاذ محمود الخفيف

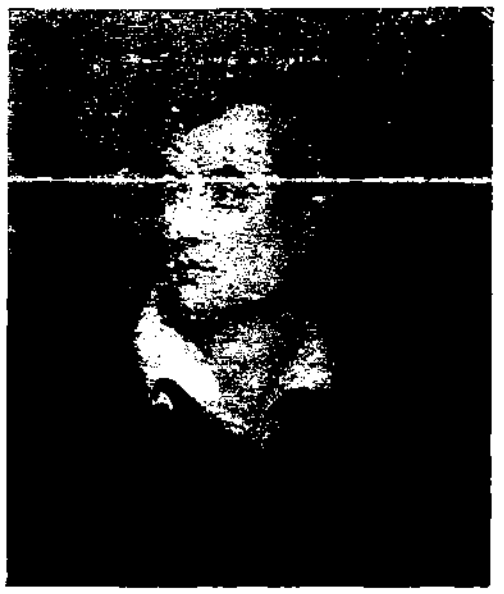

نشأته وطفولته

ستمضى السنون ويبقى بيرون فى الغرب كالمتنبى فى الشرق يحمل النفوس على الإعجاب به ، من أحبه ومن لم يحبه فى ذلك سواء . وستظل عبقرية هذا الشاعر الشاب كالشعلة تنتقل من جيل إلى جيل فلا تزداد على الأجيال إلا تألقاً وإيماضاً . وما كان لشعر كذلك الذى جاشت به تلك النفس المتوثبة الثائرة ، وغنت به تلك الفيثارة الملهمة الساحرة، أن تذهب الأيام بروعته وسحره، مهما تغيرت فنون القول واختلفت ضروب البيان

وما عرفت انجلترة ، بل وما عرفت أوربا كلها شاعراً كاللورد بيرون بلغ فى مثل سنه مبلغه من نباهة الاسم وبعد الصيت فى القارة جميعاً . وما عرف تاريخ الآداب رجلاً هز عصره هزاً متوالياً عنيفاً كما هز عصره ذلك الشاعر الذى تمرد على كل شىء حتى على نفسه . وما لقى رجل من مواطنيه مثل ما لقى بيرون من الإعجاب الشديد والسخط الشديد . ثم ما اختلف النقاد فى رجل اختلافهم فى ذلك الذى كانت شخصيته الفذة مجموعة عجيبة من المتناقضات ، ذلك الذى بلغ قمة المجد الأدبى وهو فى الرابعة والعشرين ثم غيب فى لحده ولم يتجاوز السادسة والثلاثين

ولد جورج بيرون فى لندن عام ١٧٨٨ ، أى قبل أن تنبعث الثورة الكبرى فى فرنسا بعام واحد ، كأنما أراد القدر أن تستقبل هذه النفس الثائرة الحياة فى عصر كانت تعصف فيه أنواء تلك الثورة العاتية بأوربا كلها . وكانت الأسرة التى انحدر منها ذلك الشاعر من أعرق الأسر فى انجلترة كلها ، فلقد جاء رأسها مع وليم الفاتح عند الفتح النورمندى فى القرن الحادى عشر ؛ وكان بيرون يفخر أشد الفخر بانتمائه إلى تلك الأسرة حتى لقد قيل إنه كان يزهى بحسبه هذا أكثر مما كان يزهى بأنه مؤلف تشايلد هارولد ومنفرد

على أن الشاعر قد ورث من بعض أفراد أسرته هذه بعض ما لا يحمد من الصفات ؛ فكان سيئ الحظ من هذه الوجهة بانتمائه إلى هؤلاء . وحسبنا أن نشير منهم إلى اللورد الخامس فى هذه الأسرة ، ذلك الذى كان ينعت باللورد النمس ، فقد كان شاذاً إلى حد يقرب به من الجنون، فهو يبعثر أمواله وهو يحتجب عن الناس ، وهو لا يهدأ ذات ليلة حتى يقتل قريباً له فى مبارزة دعاه إليها على ضوء شمعة فى غرفة مغلقة على أثر خلاف نشأ بينهما وهو يأتى من ضروب اللعب والعبث ما لا يفترق به عن الصبية !

وكان لهذا اللورد النمس أخ يعمل فى البحرية وقد وصل بجده إلى مرتبة الأدميرال ولكنه كان يعرف بين زملائه ومرؤوسيه باسم « الجو العاصف » لأنه ما ركب البحر إلا هبت فى إثره عاصفة ، وأنجب هذا الأدميرال ولدين كان كبيرهما قسيم الحيا وجيه الطلعة حسن السمت ، وقد انتظم فى سلك الجندية وهو فى سن اليفاعة وخاض غمار الحرب الأمريكية فيمن خاضوا ، ثم عاد إلى انجلترة وهو فى العشرين من عمره ، فكانت وجاهته تحصر الأحداق فيه ، إلا أنه عرف بحدة عواطفه وعدم مبالاته وجرأته أكثر مما عرف بجماله، حتى لقد حمل هو أيضاً بدوره لقباً، ذلك هو جاك المجنون

وفتن جمال جاك إحدى الحسان وكانت زوج أحد اللوردات حتى هامت به. ولم تتردد حينما مات أبوها وخلف لها أربعة آلاف من الجنيهات كل عام أن تهرب معه إلى فرنسا ، حيث حملت منه ثم وضعت بنتاً ، ولكن هذه المرأة المسكينة ما لبثت أن قضت نحبها إثر مرض كما يقول بعض الناس أو من جراء سوء معاملة زوجها إياها كما يقول آخرون

على أن جلّ ما لبث أن أوقع فى حبائله سيدة اسكتلندية إلا تكن جميلة كسابقتها فقد كانت ترث عن أبيها ثروة قدرها ثلاثة وعشرون ألفاً من الجنيهات ، وقد شغفها حباً ذلك الشاب الغريب الأطوار ثم بنى بها فأنجبت له بعد أربعة أعوام طفلاً هو الشاعر الذى نحدثك عنه

كانت هذه السيدة الاسكتلندية تدعى كاترين جوردون ، وكانت تزهى هى أيضا أشد الزهو بالأسرة التى تنتمى إليها ، فقد كانت تجرى فى عروق أفرادها دماء من أسرة استيوارت الملكية ؛ ولكن هذه الأسرة لم تكن فى تاريخها أسعد حظاً من أسرة بيرون ، فقد قتل بعض أفرادها ، وأعدم البعض ، وانتحر آخرون فى عدة حوادث ، وكان آخر هؤلاء والد كاترين الذى انتحر غرقاً وخلف تلك الثروة لابنته . وطالما كان رجال هذه الأسرة مصدر رعب للاسكتلنديين ، إذ كانوا يلاقون على أيديهم كثيراً من البطش والانتقام ...

عاشت كاترين مع زوجها أول الأمر فى اسكتلندة وما لبثت أن هالها منه إسرافه وعبثه بثروتها ، وقد كان لا ينقطع عن المقامرة ، ولا يكاد يفيق من سكره . ثم رحلت معه إلى فرنسا حين ضاقت باحتقار الناس إياها وزوجها المشهّر الماجن ؛ وراح زوجها يبعثر الأموال فى باريس بغير حساب ، وهو لا يسد ديناً إلا وقع فى دين . وانتقل الزوجان إلى لندن بعد ذلك ، ولكن جاك ترك زوجه هناك وعاد إلى باريس ، وصار لا يزورها إلا حين يطلب المال . على أنها ظلت على الرغم من ذلك مفتونة به ، وقد ازدادت به تعلقاً حينما وضعت ذلك الغلام الجميل الذى سمته جورج جوردون فى مستهل عام ١٧٨٨

وبدد زوجها ثروتها ، حتى لم يبق لها منها إلا ثلاثة آلاف من الجنيهات كان دخلها منها مائة وخمسين كل عام ، واضطرت المرأة المسكينة أن تعيش بهذا القدر من المال ، ومعها طفلها وخادمتان له ، وأخذت نفسها بالاقتصاد الشديد . ورحلت السيدة إلى أبردين ، وجاء زوجها فاختار له مسكناً بقربها ، وصارا يتزاوران من حين إلى حين ، ولكنهما بقيا منفصلين . وطلب الرجل يومئذ ثلاثمائة من الجنيهات فاستدانتها وصارت تدفع رباها من دخلها حتى أصبح ما تعيش به مائة وخمسة وثلاثين ، ولكنها ظلت حتى بعد ذلك تحب هذا الرجل حباً شديداً ، ولم ينقص من ذلك الحب أنه عاد ثانية إلى فرنسا وتركها وابنها فى ابردين ، على أنها لم تره بعد ذلك ، فقد لقى حتفه منتحراً كما أشيع ، وابنه فى الثالثة من عمره

وعاش الطفل مع أمه وخادمتيه ، وكان شذوذ هذه الأم فى كثير من سلوكها لا يقل عن شذوذ أبيه ؛ كانت تحنو عليه أحياناً أشد الحنو ، وتقسو عليه أحياناً أشد القسوة ، حتى لتضربه ضرباً شديداً . ولقد قذفته ذات يوم بملقط النار وهو نحى فكادت تقتله ؛ وكثيراً ما رآها فى ساعات غضبها تقذف الخادمة بالأطباق فإن لم تجد أمامها أحداً مزقت ثيابها ولطمت وجهها وحطمت قبعتها كأن بها جنة . وينظر الطفل إلى أمه فيعتلج فى نفسه الصغيرة الألم والرثاء والإشفاق ، وقبل ذلك رأى أباه ورأى مواقفه من أمه ومواقف أمه منه ، فكان يتساءل عما يرى مندهشاً لا يقتنع بما تجيبه به خادمته

وكان الطفل جميلاً كأبيه ، ولكنه ولد وفى إحدى قدميه عاهة فكان لا يستطيع أن يطأ بها الأرض إلا على أطراف أصابعها ، ولذلك كان فى مشيته عرج ظاهر وكان يتألم من ذلك أشد الألم ، وما كان أشد ألمه حينما كانت أمه تعيره بهذا إذ ترميه بالسيل الذى لا ينقطع من شتائمها ، ولكنه كان يكظم غيظه وإن نفسه لتنطوى على ثورة صامتة ، ولم يتمالك نفسه ذات يوم ، حينما دعته بالأعرج ، أن يجيبها قائلاً : « هكذا ولدت يا أماه ! » وفى هذا الرد نلمس نغمة الشاعر المستقبلة حينما يجرى الحوار على ألسنة أشخاص قصصه . ولقد أتى بموقف شبيه بهذا فى إحدى رواياته فلقد استقرت مواقف الطفولة فى نفسه وما برحت بعد ذلك تظهر فى آثاره . وما كان الطفل يصبر على أحد غير أمه يشير إلى عرجه ؛ لقيته ذات مرة فى الطريق إحدى السيدات وهو لم يتجاوز الثالثة فقالت لخادمته : « ما أجمل هذا الطفل لولا أن له وا أسفاه مثل هذه الساق » . فبدت على وجهه أمارات الغضب وصاح بها قائلاً : « كفى عن هذا » ، ثم ضربها بكرباج لعبته محتجاً محنقاً

ويطول بنا الكلام لو رحنا نسرد ما كان يلاقيه الطفل على يد أمه من عذاب ؛ وحسبك أنهم انتزعوا منه ذات يوم سكيناً أوشك أن يجريها على عنقه يريد أن يقتل نفسه وقد ضاق بما كان من أمه . على أنه ما كان يفكر فى الانتحار وحده فكانت تحدثه نفسه أن أمه تنتوى ذلك . ومما يذكر عنهما أن كليهما ذهب على غير علم من الآخر إلى بائع العقاقير وطلب إليه ألا يبيع الآخر سماً إذا هو رغب فى شرائه

(يتبع)

الخفيف